وشمٌ على كتف الجراح

قصة الجريح رياض العفي

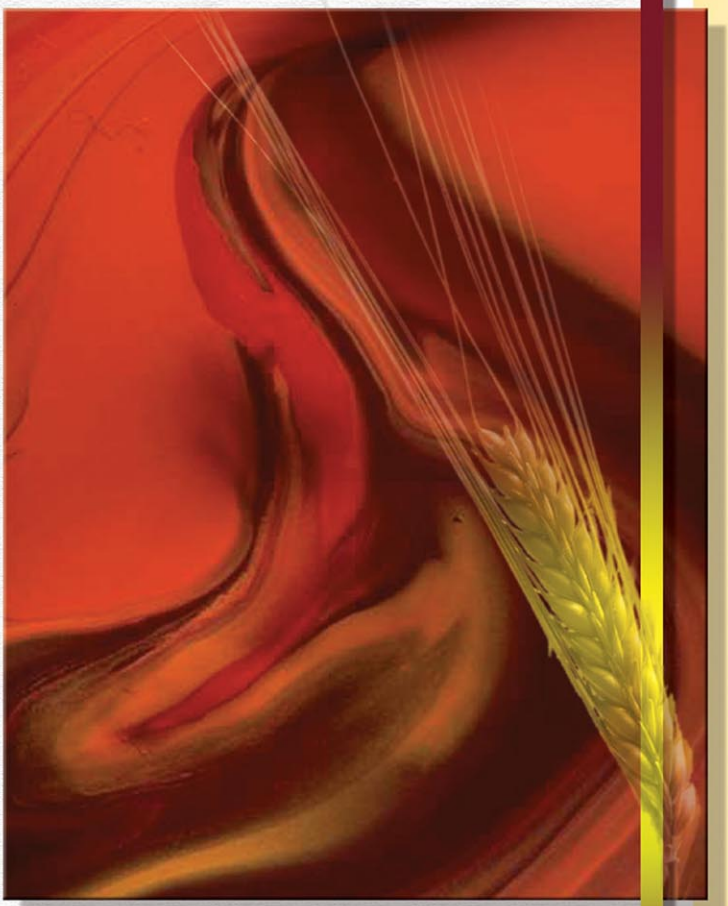

أمراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

وشمٌ على كتف الجراح

تأليف: سعيد أبو نعسة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

- **القصة**: وشمٌ على كتف الجراح.
- **قصة الجريح**: رياض العفي.
- **الكاتب**: سعيد أبو نعسة.
- **الدرجة**: نالت الدرجة الثانية في المسابقة الثانية لأفضل قصة جريح التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب اللّه ومؤسسة الجرحى ورعتها بلدية برج البراجنة.
- **الناشر**: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة**: الاولى نيسان ٢٠٠٣م ـ صفر ١٤٢٤هـ.
  على نفقة بلدية برج البراجنة

الإهداء

إلى أجيالٍ ترقب إنبلاج الفجر
وتنهج بنهج دماءٍ خطّت قصيدة الحريّة
على جبين الزمن
أروي ما حَكَتْهُ لي الجراح..

أمراء النصر والتحرير

قصة الجريح رياض العفي

الشمس تنسى نفسها في (بعلبك)، تضيع منها البوصلة، فتبطئ في سَيرها، تاركة لألْسِنتها إلهاب الجلود، ولحرارتها إنضاج حبّات العرق.

وأيلول الغدّار حرباء بألف لون، تسرق أطياف الشمس، تخفيها عن عيون الناظرين ولا تُوشّح جلدها إلا بلونين، يختزلان الموت: الأسود والأصفر.

تكره (أم رياض) هذين اللونين، وتتعوّذ بالله من شرّ الخريف.

تقوم إلى صلاة الفجر، قبل صياح الدّيك، وتمضي تكنس عن مصطبتها الاصفرار، مفسحة لشمس الضحى، كي تضيء وجه الدار، فلا تُعكّر زيارتَها، وريقاتُ دالية حلّ الموت ضفائرها، وذبّل منها الأطراف.

لا تخطئ الشمس بيت (أم رياض) تقصده كلّ صباح كي تضبط عقاربها بلِمسَة ناعمة، تفتح بها (أم رياض) نافذة تطلّ منها على الحياة.

تَذكُر الله، وتُسبّح بحمده، وتُرسل دعاءها صوب (الجنوب).

هذا الصباح، هاجمت غيوم أيلول سماء (بعلبك)، أطفأت الشمس، فاكفهرّت الأشياء، وهرعت (أم رياض) تنزوي خلف قضبان النافذة، ترنو من خلالها إلى الأفق البعيد، تتوجّس شراً، وتستجير بالله من الآتي الأعظم.

لم تنظر إلى وجه (رياض) يوم ودّعها، قبل شهر أو يزيد.

تشاغلتْ، كي تُخفّف عنه وقْعَ الفراق.

من حَقّها أن تتجلّد بالصبر، وتكتم براكين الشوق، ولو لمرّة واحدة.

ومن حقّه أن يتحرّر من شرنَقَة لهفَتِها، ولو لرحلة واحدة.

طال غيابه هذه المرة... طال كثيراً!

لو كانت تعلَمُ الغيب، لاستكثرتْ من القُبَل، ولَهَصرَته بين ذراعيها، تلثم خلايا وجنتيه خليّة خليّة.

ولو كان مُطّلعاً على أمر المهمّة، لاختزن عبير أُمّه قبل الرحيل، زاداً يقيه العثرات ونوراً يهديه سُبل الرّشاد.

لو رمَقَتْه يومها عبر النافذة، لعَبّتْ صورته، قبل أن تطويها أزقّة (بعلبك) في رحلة صوب (الجنوب).

لكنها لم تفعل.. آثرتْ شدّ أزره، وإيهامه برضاها التام عن غياباته المتكرّرة.

تجمّلتْ بالصّمت، وأطلقتْ له حريّة القرار، هو الذي لم يحد عن جادّة الصواب، مذ طرق الوعي بابَه، وكان شعاره: طاعة الله والوالدين.

منذ عشرين عاماً وُلِد (رياض) رجلاً دفعة واحدة، رزينا، مسالماً، وقوراً، تراه الأمّ بقلبها وتستشعره بفكرها، فما ندّ عن لسانها غير الدعاء له بالرضى.

كم كان يُطربه تغنّيها بخصاله أمام الجارات، وتشجيعها إيّاه بعبارات الحبّ والاحترام، وتقدير عطاءاته الصغيرة للحياة.

حين خطّت ريشتُه اللوحةَ الأولى، فغرت الأم فاها

عجباً، وقبّلت يُمناه، فطوّقها بذراعيه، شاكراً رعايتها بواكير فَنّه.

لم تكن تعلم أنّ قُبلتها البريئة جواز سفر ناله (رياض) إلى دنيا اللون والظل، وأن قروشها القليلة ما كانت تلامس كفّه إلا ليَنقدَها بائعَ الألوان، فتستحيل القروش لوحات فنية، تعبق بأريج الزهور، وبباقات الورد، تزيّن صدر البيت وزواياه.

أفلتَتْ قضبان النافذة، موقفةً تدفّق سيل الذكريات، وسرّحت الطّرف في أرجاء الغرفة، فألْفت اللوحات تبسم في وجهها، تُذكّرها ببسمته العذوب، وبأنامله الغضّة، تداعب الريشة، فتنداح شعيراتها على صفحة بيضاء بياض قلبه ؛ تروي قصة رَسّام، خلبت لبّه الورود، رمزاً للحبّ والوفاء؛ فراحَ يغرسُها في تراب لوحاته أشكالاً وألواناً.

ذات يوم فوجئَتْ به، يرسم وردة غاضبة، منفوشة الأوراق، وكأنّها خرجتْ لتوّها من عراك محموم.

حدّقَتْ إليها فوجدَتْها تتربّع فوق سيف مثلوم.

تغيير في نمط الإبداع، سنّه (رياض) مُبرّراً تحوّله هذا بقوله: «لا بد أن تنتصر الوردة في الختام. كيف أرسم الورد في زمن الحرب؟ ماذا سأرسم يوم تنصيب السلام؟!»

يومها، حكّ رأسه مرارا عديدة. قال: «اللوحةُ تَنقُصها فكرة».

شرع يدور في أرجاء الغرفة عاقدا كفّيه خلف ظهره، مُطرقا إلى الارض، باحثا في ثنايا الذاكرة عن لمسةٍ تُجسّد فكرةً أخيرة، تُلبسُ اللوحةَ ثوبَ الكمال.

كان الفشل حليفه، فقرر هجر اللوحة إفساحا في المجال لاختمار الأفكار.

هذه اللوحة تحديدا، كدّرت الأمّ ؛وجدت فيها مُنافسا لرياض، يَقضّ عليه مضجعه، ويَسلبه أريَحيّة الاسترسال في إنجاب تُحَفٍ يَنطقُ فيها الجَمال. فكانت تتجاهلُها، تزْورُها، وتتعمّد تركها نهبًا للغبار، علّ عوادي الزمان تنالُ منها.

لم تأنَس إليها إلا بعد إصرار (رياض) على الاحتفاظ بها قائلا: "سأكملها إن كُتِبت لي السّلامة."

بعدها، هنِئت اللوحة بالدّلال، صارت قِبلة الرعاية، تحنو عليها الأمّ، تشمّها، تضمّها، تعقد عليها الآمال، تتفقّدها بعد كل صلاة، تَخُصّها بدعاءٍ، يُعيد(رياض) سالما، كي يُكمل التحدّي!

ثم تروح تعاين مقتنياته.. كلّ أشيائه تحمل بصَمَاته، وتحتلّ من الغرفة أماكنها بانتظام؛ طاولته الصّغيرة تقبع هنا، قرب نافذة، يطلّ الجالس إليها على جبالٍ تحضن (بعلبك) من الجهات كلّها، وترخي جدائلها الخضر، على بساتين غنّاء، تحرس القلعة، وتظلّل بأفيائها حضارات، سادت ثمّ بادت.

لو شيّعَتْه بنظراتها يومذاك، لابتردتْ بنسائم طلعَته، تطفئ بها لهيب ذكرياتٍ، تضطرم في ذهنها اضطرام دموع حَرّى، ذرَفتْها يوم أَسكتَ القدَرُ وجيبَ قلب زوجها، وخلّفها وردةً في ريعان الشّباب، تضمّ إلى صدرها تُويْجَين، تمدّهما بنَسْغِها، وتَذبل أَمامهما رويداً رويداً.

يومها، تصابرَتْ أمام نظرات طِفليْها، جَفّفتْ الدّموع،

وقامت تداعبهما، تزرع فيهما الأمل والفرح، تستلهِم صبرَ نسوة، وقفْنَ أمام المأساة شامخات.

ها هي صورة الراحل، تحتلّ جبين الغرفة، تطلّ من خلالها بسمة الرضى، تقول: «ما مات مَنْ ترك ولديه، أمانةً في يد أُخت الرّجال».

لو نظرَتْ إلى (رياض) يومها، لرأتهُ يختفي خلف الضباب، كما اختفت هي في ضباب الأسئلة.

الضباب يلفّ تفاصيل الحياة، ينبثق من قسمات الوجوه، ومن رحم التراب، من شتلات التّبغ، ومن حبّات الزيتون، من السنابل الأبيّة، ومن نوافذ شُرّعت على المجهول، تطرح في وجه الزّمان ألف علامة استفهام.

هي تكره الضّباب وكلّ تداعيات الرّماد.

تكره الهروب إلى الأمام.

لم تسمع غير قصص زياتين، وقفتْ بإباءٍ في وجه العاصفة، وحين اجتثّها عُبّاد النّار، أطلقت جذورها، تفرّخ في وجوههم آلاف الشجيرات.

أنّى لها إذًا أن ترفض طلب (رياض)؟

قال لها : «الممسوخون يعيثون في الوطن فسادا، يحرقون المقدّسات، ويبقرون بطون الحوامل، فكيف أتخلّفُ عن الجهاد؟!»

لو نظرَتْ إليه يومها، لأدركتْ أنها أنجبت مشروع شهادة، يشدّ الرّحال إلى الجنوب، يودّع لوحاته وألوانه، يُرامِق لوحته الأخيرة، لوحة لم تتمّ ؛ يخالها تبتسم ابتسامة مَن ربح التّحدّي؛ فيبسم لها بدَوره، ولسان حاله يقول: «يضحك كثيراً من يضحك أخيراً»؛ ويمضي

جنوبا لرسم لوحة فريدة، بمدادٍ لا تُنتجه إلا خلايا البشر.

لو قُدّر لأمّه أن تنظر إليه اليوم، لرأته يغرس عينيه في أرض (الجنوب)، ويُقبِل غير مُدبر، على مواقع الأعداء، يرصد تحرّكاتهم مع ثلاثة من الأخوة، نهارا جهارا، يحتمون (بجبل صافي)، ويوجّهون صدورهم صوب (تلّة سُجد) لا تُرهبهم آليات عملاقة تنفث الموت واللآيزر، ولا أشكال غريبة، تُخفي معالمها وراء أقنعة حديديّة.

إنهم يتقدّمون.. بضع مئات من الأمتار تفصلهم عن الأعداء؛ وأعينٌ مؤمنة تحصي العدد والعتاد، تنجز المهمّة بدقّة ومهارة، لا تجاريها فيها إلا عيون اللايزر، ترسلها (الميركافا) العجوز خلف الأخوة، مشفوعة بقذائف تنطلق تلقائيّا.

لو سمعوا صوتها، لتيقّنوا من بُعدها، لكنّها انهالت عليهم، تئزّ وتنفجر في سرعةٍ دونَها البرق، تمزّق السكون، وجسدين طاهرين.

لو قُدّر(لرياض) أن يكون الأقرب لمكان الانفجار، لكان ثالثَ اثنين يبتسمان فرَحاً، بتسلّم الشهادة؛ لكنّ ضغط الانفجار رَفَعه عن الأرض، ليلقي به على وجهه، في شدّة وقسوة.

لحظاتُ سُكون تَعمّ المكان.. وصفاء رائقٌ ينسرب إلى نفسه، وقد شعر بِخَدر لذيذ، يسري في أوصاله، فأيقن أنّها الثواني التي تسبق حفل توزيع الشهادات. إن هي إلا هنيهة، وتُخلع عليه عباءة التّخرّج، ويمضي إلى المنصّة

زاهيا شامخ الرأس؛ يُلقي السّلام على هيئة التشريفات ؛ يعرفهم فردا فردا، فكيف يغفل عن رجلٍ ينتهي جسده عند الرّقبة، وشابٍ يرحّب به، يرفع ذراعيه، متأهّبًا للعناق، فلا يرى له كفّين؛ ورَجُلٍ وضّاح الجبين، شهم القَسَمات، يبرز من صدره خنجر يقول:" فُزت وربّ الكعبة».

كيف سيحتمل هذا النّور كلّه؟

لحظةٌ لطالما تمنّاها، واندفع في حلوق الأعداء، طلَبًا لها.

ها هو منها قيد ذراع؛ ما زال من الروح بقيّة، فهل إلى الدّعاء من سبيل؟

هي السّاعة التي يُستجاب فيها الدّعاء. يحفظُ العديدَ من الأدعية، لكنّه يطرب إذ يُردّد :

" صبرتُ على حرّ نارك، فكيف أصبر على فراقك؟.. اللّهم اغفر لي الذّنوب التي تهتك العِصم والذّنوب التي تُنزل النّقم."

يتلذّذ لسماع موسيقى إلهية، لم تَسمع بها أُذن من قبل، تنساب بعذوبة تدغدغ كيانه.. آلات لم يخطر على قلبه أن يطرب لعزفها، تتهادى منها الألحان.. تقترب منه.. تقترب.. يظنّ انّه المقصود بالاحتفال ؛ يبتسم، ويَحصر حواسّه كلّها في عينيه ؛ ويُذهله أن يكون المُحتفى بهما شابّان، كانا إلى دقائق خلَتْ يرصدان الأعداء معه. يعجبُ لأحدهما يبتسم، وجسده مبتور إلى نصفين ؛ وآخر رَسمت الشّظايا على قسماته شارة النّصر.

كان يودّ أن يصرخ بملء صوته : «خذاني معكما.. معًا

تعاهدنا على طلب الشهادة.. كيف أُستثنى من اللحاق بالقافلة؟! لا تستأثرا بالنور دُوني!».

من بعيدٍ شاهد أَخوَيهِ يرتقيان.. يُسلّمان على أفراد القافلة.. ويتسلّمان شهادتيهما باليمين.

ذرفَ (رياض) علقما، وهو يشاهد أنوار القافلة تشحّ وتنأى، تُلامس الأفق البعيد، فرَمَق أغصان الزّيتون الملقاة إلى جانبه، وتنهّد أسىً.

﴿ومنهم من ينتظر﴾ سمعها (رياض) من أخيه الثالث، يُهدهدُ بها خاطره، وقد خفّ إليه يعاين جراحه. حاول (رياض) تحريك يُمناه، فَأَبتْ عليه وتمنّعتْ ؛ ظنّ أن ثقلاً يُكبّلها.

أعاد المحاولة مرارا، فاستعصى عليه الأمر. تأكّد أنّ زمن الرّسم قد ولّى.. وأنّ لوحته التي لم تكتمل فازت في الرّهان. حرّك يُسراه فتململت أصابعه، مُعلِنةً تشبُّثها برَمق من الحياة، رغم التواء عظام الذراع، وتَكَسّر بعضها.

كان في مقدوره أن يرى المسامير التي دقّتها القنابل الانشطاريّة في جسده؛ فعجب كيف زايله الألم، ولم يشعر إلا بوَخزٍ طفيف.

«هي حرارة الحديد» قالها، وهو يُسلّم ذراعه اليُمنى إلى أخيه، كي يُحكِم ضمادها، حجْبًا لتدفّق الدّماء.

استصعب أن يعود وحيدا، وقد قرّر زميله متابعة تنفيذ المهمّة.

(ما حكّ جلدك مثل ظفرك)، تذكّرها وهو ينهض مُبسمِلا، عاقدا العزم على ارتقاء جُلول الزيتون، وصولا إلى مأمنٍ يَقيهِ غدر الأعداء.

ما مصدر القوّة التي تشحذ عزيمةَ الإنسان؟

سؤال طرحه (رياض) على نفسه، وهو يزرع قَدَمه بين حجارة السّاتر الذي يقي تراب الجَلّ، نابضاً جسده إلى الأعلى، ليستقرّ فوق صفحةٍ منبسطة ؛ مُكرّرا الصّعود جلاً إثر جلٍ.

وها هو يقف أخيراً، وجهاً لوجه، مكشوفاً في العراء، العدوّ من أَمامه، والمنحدر من خلفه، فما عليه إذاً، إلا الاختيار بين أمرين أَحلاهما مُرّ.

هي المرّة الأولى التي يتذكرُ فيها والدتَه هذا الصّباح.

قالت له يوماً:" الموت ولا الأسر.. نور عيني الزّينبات.. لا أذاق الله مؤمناً ويلاتهنّ».

فهِم الرسالة يومها، وقرر ألا يُسلم جسدَه للأعداء إلا بعد اتّحاد روحه بالمطلق.

شعر بيَد أُمّه تُرَبت على كتفه، وتحضنه منطلقةً به كالسهم الخارق؛ فراح يعدو باتجاه تلٍّ شمالي يستره عن عيون الأعداء؛ وقذائف الـ(تاو) تلاحقه، منفجرة هنا.. وهناك.. وهو لا يرى إلا رَجُلاً يفتح ذراعيه من بعيد، استعداداً لعناقه. ظنّه في البدء أباه.. وحين عانقه اكتشف حلاوة عناق مشكاة نورانية.

لو قُدّر لأمّه أن تراه الآن، لزغردتْ فرحاً بالوسام، ولابتهلتْ إلى الله أن يتقبّل منها هذا القربان، ذراعاً مُبدعة كانت أناملها تستنطق الألوان.

ما الذي خطر ببالها اللحظةَ، كي تترك النافذةَ مرّة أُخرى، وتقطع حبل الذكريات؟

في الأمس فقط، رتّبت حاجيات (رياض)، وشرعت

تحوك له بسهام عينيها كنزة صوف، تقيهِ شُرور كوانين بعلبك.

تَذْكُر تماماً، أنها نضّدت عدّة الرّسم على الطاولة.. عُلب الألوان والريشة على يمين المنضدة، ودفتر الرسم على يسارها.. واللوحة المتحدّية تُزيّن منها الصدر.

هكذا كان يحلو لرياض ترتيبها.

مَنْ قَلَب الأمكنة؟!

الريشة تتحرّك.. تكاد تنطق.. شعيراتها تنفرج مُشَكّلة الرقم (٧).

ما معنى هذا كله؟

لماذا تَنْتابها الوساوسُ وتتجاذَبها الأفكار هذا الصباح؟

قلْبُ الأمّ لا يُخطئ.. فكيف يُخطئ سمعُها؟

تسمع (رياض) يهتف من بعيد..

الليلة الماضية أضناها الشوق إليه، وحين أسبلتْ جفنيها رأتْه يعدو نحوها.. تتعثر قدماه، ويجهد في تطويقها بذراعيه.

أفاقت مذعورة.. وحمدت الله أن ما رأته كان حلماً.

لم يكن يزعجها أن تستيقظ في الليلة الواحدة مرّات ومرّات.. تُلبّي طلبات طفلٍ، تفتحَتْ عيون أُمومتها على بَسمتِه، وترنمتْ أذناها بكلمة يلثغ بها، وتتوق إليها النساء: ماما.

لكنّ سبب قيامها الليلة مختلف!

فما عليها إلا أن تخشعَ في عبادةٍ تطلب له فيها النجاة، وأن تَجِدّ في سَعيها نحو (المقام)(*).. إليه كانت

(*) مقام السيّدة خولة بنت الحسين عليها السلام.

تصحبه.. تتبارك وإيّاه عند عتبته المقدسة، وتشرع تردّد في حضرته كلمات نورانية، حفظَتْها مُشَافهة في مجالس العلماء.

هي اليوم في شأن يُغنيها؛ أَكَدّرها ذاك الكابوس، أم انتقال فرشاة الرسم على الطاولة إلى جهة اليسار؟

أم هذه الجلبة في الخارج تزداد اضطراباً كلما اقتربَتْ من بيتها؟

وجدَتْ نفسها تندفع إلى خارج الدار، تهزّ أكتاف صديقٍ، دأب رياض على مرافقته.. تتلعثم في فمها الكلمات: أين رياض؟

- رياض بخير.. جراحه طفيفة.

«لطفك يا ربّ» غمغمت وهي تخفي جسدها خلف الملاءة.

جلستْ في المقعد الخلفي، تقرأ ما تيسّر...

وحده الدعاء مُخّ العبادة، يُلَطّف الله به أَحكامَ القَدَر.

لم يبقَ لها غير الذِّكر، تستعين به على تهدئة خواطرها؛ وغير شريط أهدَتْها الذاكرة إيّاه.. يمرّ أمام ناظريها، يختزل العمر والطريق، ويوصلها إلى غرفة رياض في المستشفى.

اندفعتْ تتعثرُ، يسبقها خوفٌ على المصير، ولهفةٌ آسرة.

أيّهما سيفرضُ نفسَهُ على قسماتها؟

كلّ الأخبار أهون على قلب الأم، مِن نعيٍ، يتلجلج معه لسانُ الناعي: ابنك أعطاك عمرَهُ!

ماذا تفعل الأم بعمر ابن رَحَل؟

كيف تحيا بعد مواراته الثّرى؟

«القلب يحزن والعين تدمع" كلمات انثالت على ألسنة الأنبياء، أمام جثامين أبنائهم. فما عسى الإنسان العادي أن يقول؟

حين فاجأها رياض بلباسه المقاوم، قبل سنوات ثلاث، حارَتْ الأمّ، أتُزغرد أم تُقطّب الجبين؟

هو السَّنَد البِكر بعد رحيل زوجها».

لاحظ (رياض) ما يعتَور أمّه من وساوس، فاحتضن رأسها بين كفّيه، ماسحاً دمعةً تماهلت على خدها: «إنّه الوطن يا أُمّي.. شماله كجَنوبه، كهذا السهل المعطاء.. إذا اشتكى منه جزء تداعت له سائر الأجزاء بالسّهر والحمّى.. ليتكِ تزورين الجنوب.. هضاب يضجُ فيها العنفوان والإباء.. بقاع بوركَتْ يوم بُورك المسجد الأقصى.. تلمسين قداسته فيها.. صرخات استنجادِه تتردّد بين جنباتها».

يومها، طلبتْ له النّصر والتوفيق.

بعد ثوانٍ معدودات ستُكَحّل عيونها بِمرآه. لا يفصلها عنه سوى باب موصَد. تشمّ عطره يتسلّل إليها، ممزوجاً بعبق صعتر ضمّخ ثيابه، لحظة عناقه تراب الجنوب.

«باسم الله» قالَتْها وهي تفتح الباب، فاجتاحَتْها قشعريرة أثقلَتْ خَطْوها، وأفردَت لعيونها القيام بمهام الحواس.

«أمي» هي الكلمة التي أزالت الغشاوة عن بصرها، وحددتْ سَمْتَ رياض. فانكبّتْ عليه، تلثم ما لامس كفّيها من جسده، وتغسل آلامَه بِعَبرات تُبَلسِم الكُلوم.

بِعَفويّة أُمّ تَستقبل وليدها، انسابَتْ أناملها تستطلعُ حواسه، فأثلج صدرَها خلوّها من العطب.

جهرَتْ بِحَمد مَنْ لا يُحمد على مكروه سواه.

أين الجراح إذاً؟ تساءلَتْ وهي تتحسسُ جسدَه نُزولاً، بحذرٍ لا يُضاهيها فيه إلا نازع الألغام.

أجهشَتْ بالبكاء، إذ تذكرَتْ كابوسَ الليلة المنصرمة، وارتمَت فوق كتفه الأيمن، تهصرُ بِشَفتيها ما تَبقّى من ذراعه.

ماذا غير الذراع؟ سألته مُتَنهنهة.

«هذا كلّ شيء حتى الآن.. استشهدَتْ منّي الذراع.. كنت أطمع في المزيد.. أَلا أُكفن بِغير بزّتي المرقّطة.. (لا نامت أعين الجبناء.. لألفُ ضربة بالسيف أَهْوَنُ من ميتة على الفراش).. لن يهنأ لي بالٌ حتى ألحُقَ بموكب النّور.. رأيْتُ القافلة بأمّ عيني.. سمعتُها تعزف لأخوين، فُتِح لأجلهما باب (الريّان).. قدّر الله وما شاء فعل."

كان بودّها أن تُنصتَ خاشعة لقصة جراحٍ، عانقَتْها القافلة؛ لكنها أوغلَتْ مع ذاتها تستقرئ الآتي.. تتشوّقُ إلى (بعلبك) في عودة إلى (المقام)، يصحبها شابٌ طَوّق جَدّته عليها السلام بذراعيه مودّعاً، قبل شهرٍ أو يزيد، وسيعود إليها كي تبارك ما تبقّى من جسده؛ وتدعو له، علّ دعاءها يقرّبه إلى الله زلفى ؛ ويشفع له، كي يعود إلى (الجنوب) من جديد ؛ يقارع الأعداء، كَفّا لمخرز، وصرخةً لقذيفة.

ما هَمّه أنْ يُستشهد بالتقسيط ؛ الأهمّ أنْ يتكرّر عناقه للقافلة، وأن يهنأ بصحبة رَجُل يلازم قلّةً مُؤمنة

تنهجُ نهجَهُ، وتسعى سعيَه، في ملحمة، لا ينتصر فيها على السّيف سوى الدماء.

(الزّينبات ﷺ) حاضرات فيها، يرفُلن في السّواد، ينتظرن ساعة المُفاصلة، يوم ينطق شجر (الغرقد)؛ ويعلن الكون مجيء وعد الآخرة ؛ حينها يتحلّلن من السّواد، فلا يُرَين حول أولى القِبلتين، غير حُورٍ مقصورات في الخيام، كأنّهن بيض مكنون.

ويعود (رياض) إلى بعلبك، تُظلّله الأنوار، وكَفٌ حانية، تُجَرّعه الصّبر؛ ويمضي إلى داره، يتهادى إلى سمعه دُعاء المآذن، يَحثّ على خير العمل ؛ فيتوضّأ بنور جراحه، ويرنو إلى القِبلة، مطبقا جفنيه، في خشوع غامر، فتُذهِله رؤيةُ قافلة النور، تسعى إليه ؛ تسلّمه الوسام، وتمضي.

ويهفو إلى ريشَتِهِ، يرمُقها بِحسرة، فتتململ.. يُمسّد شعرها.. فتتراقص في كفّه اليسرى. يسترق النّظر إلى لوحته المتمرّدة.. يتناولها.. يمسح دمعةً ذرفَتْها وردتُهُ البيضاء.

يغمس ريشتَه في المداد، فتنساب منها الألوان والظّلال، ذراعًا مبتورةً، تَقطر منها الدّماء، تتربّع قرب وردة تنبعثُ فيها الحياة، فوقَ سَيفٍ مثلوم.

ويضحكُ (رياض) كثيراً.

٢٠٠٢/٩/٢٧